قصة
وانقلب السحر
على الساحر
عزة مختار

قـــــــصـــــــــــة

وانقلب السحر على الساحر

بقلم :

عـــــزة مختـــــــــار

"نعلَمُ بأنَّ الكِتابة ليست سَبيلاً لمحو أوجاعنا ولكن وَجَعٌ مَكتُوب خيرٌ مِن وَجَعٍ مَكبوت"

_لقائلها

_1_

سأقص عليكم قصتي علّها تردع من سيفعل فعلتي، أما من فعل فأسفي عليك وعلى نفسي لن يشفع لنا عند الله، فالله قد يغفر في حقه أما حقوق العباد فلا فأنصت لي علّ لك في العمر بقية تقضيها أسفل قدمي من أذيته فيسامحك

أعرفكم بنفسي أنا ناهد عبد القادر ناظرة مدرسة إعدادي في مدينة ما، أنعم الله عليّ بالمال والجمال والجاه والزوج والذرية، لم يحرمني الله شيئاً غير أني عكفت أبحث عن النقص حتى وجدته يوم أن تزوج عليّ زوجي لم أظن يوماً أنه قد يفعلها ولكنه فعل سيأتي أحداً ما ويسألني وما المشكلة في ذلك رجل تزوج حقه!!

لا توجد مشكلة يا عزيزي فيما فعله هو بل فيما فعلته وأنا والذي لأجله أسرد عليك قصتي لتعلم أن الإستدراج هو أصعب فتنة قد تتعرض لها أن تعريّ لك المحن معدنك الأصلي وتكشف سؤتك أمام نفسك والآخرين أن تتنازل عن مبادئك ودينك واحداً تلو الآخر حتى ينفرط العقد ولن تستطع له طلباً

في البداية حزنت واعترضت صمت وتصبّرت وقضمت الحنظل حتى لا يُخرب بيتي وتطالُني شماتة الشامتين ولكن ما أوغر صدري حقاً وصنع للشيطان نافذة بقلبي يبُثني منها سمومه هو مقارنة زوجي الدائمة بيني وبينها ذكر محاسن أخلاقها وكيف أنها ذات دين قيّم صوامة قوامة ولها في الخير باع كبير فيجن جنوني واذكرها بالسوء فيقول لي اتق الله فهي من أهل الله الأخيار خافي مظلمتها يوم القيامة

كرهت نفسي وكرهت أن أرى الإعجاب في عيونه وهو يحكي عنها كرهت النبرة التي تكسو صوته حباً وحناناً لذكرها، لا اعلم لم يعدد لي مزاياها هل يعتقد بغبائه هذا أن هذا سيجعلني اتقبلها وارحب بوجودها في حياتنا لا والله لقد حفر بفعلته تلك قبر علاقتهم بيده

مرّت الأيام مُرّة على قلبي لا أنام جيداً لا أهتم بعملي ولا بشيء على الإطلاق سوى أن أُخرى تسللت لقلب زوجي وخطفته منّي، وذات يوم قصصت أمري على صديقة لي تُحبني ويهمها أمري كثيراً فقالت

_علاجك عندي

بلهفة أجبتها

_الحقيني بيه أبوس إيدك أنا تعبت ومابقتش قادرة دايما شايف مميزاتها ومركز معاها وأنا اتركنت على الرف حتى ولادي بيكلمهم عنها وعاوزهم يقربوا منها ويتعرفوا عليها

أجابتني صديقتي سعاد وقالت

_ياحبيبتي يا ناهد اطمني انا عندي الحل صدقيني أنا اعرف ست مبروكة أوي اسمها الشيخة وهيبة متخصصة في حل المشاكل اللي من النوع ده وياما بردت قلوب ستات كتير زيك كدا

_مبروكة وشيخة أوعى يكون قصدك اعمال ودجل وكلام من ده

_هو ده الحل صدقيني الكلام ده مش دجل الكلام ده أنا شوفته بعيني مع اكتر من واحدة الشيخة دي حلت لهم مشاكلهم واجوازهم رجعوا معاهم أحسن من الأول

صمت افكر هل سيصل بي الحال إلى تلك الدرجة دجل واعمال وجن لا لن افعل

شعرت سعاد بترددي فقالت

_بتفكري في ايه أنتي عارفة لو ضرتك دي خلفت جوزك هيعمل ايه هيشيلها على كفوف الراحة ومش بعيد تاكل عقله بكلمتين يكتبلها ثروته وتطلعي أنتي وعيالك من المولد بلا حمص خليكي أنتي خايفة كدا ومش عارفة هي بتخططلك ايه وناويالك على ايه

للحظة تخيلت أن ماقالته سعاد يحدث أظلمت الدنيا بعيواني ووجدتني اقول

"أنا موافقة"

****

جالسة بشرود على فراشي افكر فيما آل له حالي وما أنا مقبلة على فعله فقطع شرودي دخول زوجي

_مالك يا ناهد سرحانة في ايه؟

بجمود أجبته

_مفيش

_طيب أنا خارج

_رايح فين؟!

_رايح لزينة النهاردة يومها

صحت به

_بس أنا تعبانة ومحتاجاك جنبي

ربت على كتفي برفق وقال

_سلامتك بس تعبانة من ايه أنا شايفك زي الفل اهو ؟

_هو أنا لازم ارقد في السرير عشان تحس إن أنا تعبانة أنا مخنوقة يا عادل مش طايقة نفسي وأنت السبب

_أنا!!!

_أيوة ولا فاكر أن جوازك عليّا مش أذيني

زفر عادل بغضب وقال

_وبعدين بقى هو اللي هنعيده نزيده امتى هتتقبلي الوضع الجديد وتتعاملي عادي

ثم لان قليلاً وقال

_يا ناهد أنا ماعملتش حاجة غلط ولا حرام أنا كنت محتاج للجوازة دي عشان أقدر أكمل واقدر اشوف الدنيا بشكل تاني وجودها فارق معايا جداً وأنا مش مقصر معاكي ولا عمري قصرت بالعكس الجوازة دي مخلياني مقدر عصبيتك وصبري عليكي وعلى طريقتك اللي أحياناً بتكون مستفزة زاد بسببها هي ياريت تتقبلي وجودها زي ما هي متقبلة وجودك

انهرت أمامه باكية وقلت

_هي لازم تتقبل وجودي عشان هي اللي خدتك مني مش العكس هي لازم تبين قدامك إنها الست الملاك اللي بتحب ضرتها ومش متضايقة من وجودها لكن هي دحلابة فضلت تلف عليك لحد ماخدتك من بيتك ومراتك وخليتك مش شايف غيرها

أمسكني من ذراعي بعنف وقال

_دي أخر مرة هسمحلك تعيبي فيها الست دي مراتي وأي غلط فيها غلط فيا اتقي الله يا شيخة دي عمرها ما ذكرتك بسوء وأنتي يومياً مصممة تعصبيني وتتكلمي عنها بطريقة وحشة وأنا اصبر واقول بكرة تفوق وتعقل لكن أنتي مفيش فايدة فيكي

ثم تركني ترك المنزل وذهب لأحضانها تركني وقد قتلت نبتة التردد في مهدها وحسمت قراري سيطلقها مهما كلفني ذلك من عمل

****

في طريقي إلى تلك الشيخة برفقة صديقتي سعاد أخذت اتلفت حولي متعجبة من عشوائية الناس والبيوت وكأنهم من عالم غير الذي أتيت منه فملابسهم الرثة والشقاء المحفور بوجوههم يوحي بالفقر المدقع والبيوت المتلاصقة غير المنظمة بالوانها الباهتة التي تشبه حياتهم سبب لي الضيق، أما بيت الشيخة وهيبة فهو متطرف بعيد عن تلك البيوت قريب جداً من المقابر دلفنا إليه فأزكمتنا الرائحة العطنة،وجدنا الكثير من الناس بالداخل ولكل منهم مطلبه ومشكلته التي ستحلها له الشيخة، دفعت أكثر حتى ادخل أسرع فلن استطيع الصبر في هذا المكان وادخلتنا مساعدة الشيخة إليها، امرأة في عقدها الخامس على ما يبدو رغم أن التجاعيد في وجهها تعطيها عمراً أكبر ولكن سعاد قد أكدت لي أن عمرها خمسون عاماً بالفعل، كانت جالسة على مقعد خشب ضخم وأمامها نار والشموع مترامية في أركان الغرفة وكأنه مشهد تقليدي من أحد الأفلام المصرية جلسنا أمامها فقالت بجمود

_خير

ابتلعت ريقي وقولت لها بتوتر

_أنا جوزي اتجوز عليا من كام شهر واحدة كم دور ولاده وبيحبها ومش شايف غيرها قدامه مش بيبطل كلام عنها و....

قاطعتني بإشارة من يدها وقالت

_والمطلوب؟

_أنا خايفة تخلف منه عيل وتستولى على فلوسه ويرميني أنا وعيالي أنا عاوزة اربطها ماتخلفش منه

وزاد الحقد في قلبي فقولت

_ولا تخلف من غيره

صمتت والقت ببعض البخور في النار فزاد اشتعالها وبعد دقائق قالت

_لازم حاجة من أترها

قالت سعاد

_وماله نتصرف ونجيبه أهم حاجة يا ستنا تريحيها وتبردي نارها

نظرت لي نظرة غريبة وقالت

_اطمني

قلت لها

_ونجيلك امتى يا شيخة وهيبة

_أول ما الأتر يبقى معاكم هاتوه وبعد كام ساعة هتستلموا المطلوب

شكرنها وانصرفنا مسرعتين من هذا المكان

****

"أنا خايفة أوي يا سعاد"

تعجبت سعاد وقالت

_خايفة من ايه يا ناهد أنتي مش كنتي لسه مش طايقة نفسك ولا طايقة جوزك اللي مبهور بضرتك وطالع بيها السما ونفسك تاخدي حقك منها

أجبتها بحزن

_أيوة طبعا نفسي اخلص من الكابوس ده بس خايفة عادل يعرف يبهدل الدنيا وابقى خسرته للابد

_بقولك ايه احنا لسه فيها لو مش هتجمدي قلبك يبقى انسي الموضوع كله واحنا لسه ع البر

زفرت بحنق وقولت لها

_طب وهنعمل ايه في موضوع الأتر ده؟!!

بدى عليها التفكير وهي تحدث نفسها ثم قالت

_بس لقيتها، أنتي تخلي هايدي بنتك تروح تزورها وكأنها بتتعرف عليها وتاخد أي حاجة من هدومها في السر واهو منها تجيب الأتر ومنها تفرح أبوه بإنها مباركة لجوازته ومش زعلانة

_وتفتكري هايدي توافق؟!

_والله لو عرفت أن أبوها بمجرد ما يخلف من الست دي هتتركن هي وأخوها على الرف ومش هيطولوا شيء من ثروته هتوافق ونص

_خلاص أول ما نوصل البيت هتصل بيها في بيتها واخليها تيجي ونكلمها سوا ونقنعها

****

لم اتخيل ولو للحظة واحدة أن ابنتي ستوافق بهذه السهولة وأني لن احتاج أي مجهود يُذكر في اقناعها، بل أني تعجبت عندما علمت أنها تريد أن تفعل مثلي مع حماتها حتى تتخلص من زنها في موضوع الإنجاب لأنها متزوجة منذ عامين ولم تنجب ومن وقتها تهددها حماتها بأنها ستجعل ابنها يتزوج عليها في أقرب وقت

****

وبعد يومين بالتمام والكمال أتت هايدي بحجاب خاص بزوجة أبيها وأخذته منها وذهبت للشيخة وهيبة مرة أخرى برفقة سعاد أعطيتها الحجاب وبالفعل بعد ساعتين قضيتهم أنا وسعاد في التسوق في أحد المولات ذهبنا إليها واستلمنا العمل الذي كان عبارة عن زجاجتين بهما سائل ما

أشارت وهيبة للزجاجة الأولى وقالت

_ العمل ده ترشيه على مكان هتدخل وتخرج منه لازم تعدي عليه مرتين والإزازة التانية تحطي منها في أكلها أو شربها وهيحصل المراد

بلهفة قولت لها

_يعني كدا أكيد مش هتخلف ؟

نظرت لي بعيونها الثاقبة وقالت بكبر

_الشيخة وهيبة لما تقول هيحصل يبقى هيحصل

قمنا ودست سعاد في يد الشيخة ثلاثة الاف من الجنيهات ثم شكرناها وانصرفنا

****

"تؤتؤ مافيش اعذار يا زوزو هستناكي"

_هحاول والله يا هايدي بس أنتي بتقولي العزومة في بيت مامتك مش بيتك أنتي فأنا خايفة هي ماتكونش متقبلة وجودي

_يا خبر دا أنتي ماتعرفيش ماما بقى دي حتة سكرة هي صحيح اتفاجئت بالخبر زينا كلنا واكيد زعلت شوية بس دلوقتي هي هديت ومتقبلة الموضوع وأهم حاجة عندها سعادة بابا وعلى فكرة هي اللي قالتلي اعزمك عشان نتعرف ونقرب المسافات احنا مهما كان أهل دلوقت

فرحت زينة كثيراً وقالت

_طبعاً طبعاً ياحبيبتي هاجي بإذن الله وأنا والله نفسي اتشرف بمعرفتها ربنا يديم الود بينا

_يارب يا حبيبتي

أغلقت هايدي الهاتف وابتسمت لي بخبث وقالت

_ها يا نونو عجبتك؟

أجبتها بنصر

_طبعاً يا قلب نونو خليها تيجي تستلقى وعدها خطافة الرجالة

****

" ليس هناك أسوء من إنسان قتل ضميره وشوّه فطرته وارتضى بالشر سبيلاً "

وقفت أمام المرآة ارتديت أفخم الثياب ووضعت بعض مساحيق التجميل فجعلتني ابدو أصغر من عمري الذي بدأ يخطو نحو الخامسة والأربعين بخطى ثابتة، رسمت إبتسامة زائفة وكسوت نبرتي حناناً افتقده وخرجت لاستقبال غريمتي

_نورتينا يا زينة، ياخبر دا عادل ما بيعرفش يوصف خاالص

بخجل مصطنع أجابتني بنت الثلاثين

_ دا بس من ذوقك يا مدام ناهد

بدلع قلت

_ تؤ تؤ احنا اخوات دلوقت قوليلي يا ناهد او يا نونو زي ما عادل بيقولي

_طبعا يا نونو أكتر من أخوات ربنا يعلم معزّتك عندي

عادل بفرحة عارمة

_أنا حاسس إني بحلم أنتم مش متخيلين أنا مبسوط ازاي بالمحبة اللي شايفها بينكم ربنا ما يحرمني منكم يارب وتفضلوا على طول سمنة على عسل

اقتربت منه بحميمية واحتضنت خصره بحب وقُلت

_ عشان خاطر عيونك يا حبيبي اعمل أكتر من كدا، يلا ادخل أنت وزينة على الصالون وأنا هدخل لهايدي المطبخ ونحصلكم

قالت زينة

_أنا ممكن اساعدكم

منعتها بلطف

_لا لا أنتي النهاردة عروستنا وضيفتنا لازم تتدلعي وبس المرة الجاية هتساعدينا أكيد

دلفت للمطبخ وأنا أخذ نفساً عميقاً كمن أزاح حجراً ثقيلاً من على صدره وقُلت

"يا ساتر على تقل دمها "

بحماس قالت هايدي

_ها عدت على العتبة ولا ايه

_أيوة فاضل الخطوة الأهم ادخلي رحبي بالهانم وأنا هحصلكم بالعصير وهحط المطلوب

ذهبت هايدي لترحب بها

_نورتينا والله يا زوزو دي ماما من الفجر بتعملك محاشي ومشاوي عشان عرفت إنك بتحبيهم زينة بخجل

_تسلم إيديها ويسلم ذوقها يارب أنا والله حبيتها

_هي كمان بتحبك أوي

أتيت وأنا احمل صنية العصائر وقلت

_العصير تصبيرة لحد ما أحمد جوز هايدي يوصل ومودي يخلص الدرس عشان ناكل كلنا سوا

ناولتها كوب العصير الخاص بها وراقبتها بحذر حتى ارتشفت منه وتنفست الصعداء

_حقيقي نورتينا

****

كنت أظن أني سأرى نتيجة صنعي باكراً في نفس اليوم أو اليوم الذي يليه ولكني صبرت طويلاً شهراً بالتمام والكمال حتى أتى عادل للبيت مهموماً فبشرني قلبي قبل أن ينطق هو بشيء

بلهفة سألته

_مالك يا عادل شكلك متضايق كدا ليه أنت كويس ؟

بحزن كبير أجاب

_زينة تعبانة أوي كل شوية يجيلها نزيف من غير سبب وجسمها كله بيوجعها

بشفقة مصطنعة قلت

_ يا حبيبتي اسم الله عليها سلامتها ألف سلامة طب ما كشفتش ليه؟!

_ هي كانت شاكة إنها حامل بس لما عملت الإختبار طلع سلبي

_ممم ممكن تكون تغير هرمونات في جسمها دا عادي وبيحصل لبنات كتير بعد الجواز

وبينما نحن نتحدث رن هاتفه فأجاب ومن ردوده الفزعة خفق قلبي فرحاً فلقد تم ما أردت

بعد أن أغلق المكالمة نكس رأسه بحزن ودمعت عيونه وظل يحوقل

_خير يا عادل في ايه قلقتني؟؟

مسح دموعه وقال

_زينة كانت راحت لدكتورة من يومين وطلبت منها تحالي وأشعة ونتيجتها ظهرت دلوقت

_طب ايه النتيجة؟

_سرطانات كتيرة منتشرة في الرحم ولازمها عملية في أقرب وقت

_ يا خبر!! لا اله الا الله كان مستخبيلك فين دا كله يا زينة، قوم يا عادل روح لها وخليك جنبها هي أكيد محتاجالك أوي دلوقت وابقى طمني عليها لما توصل

قام عادل ولا يدري ماذا يفعل وقلبه يتفطر على تلك المسكينة التي كانت كل أمانيها أن تحمل في أحشائها قطعة منه ولكن قدر الله وماشاء فعل

****

وبعد خمسة أشهر قضتهم زينة بين جلسات الكيماوي التي لم تؤتي ثمارها اضطرت لإجراء عملية وأزالت الرحم وأنتهى أملها في أن تصبح أماً لأي طفل وبالطبع لم أكن اتوقف عن زيارتها كي اتشفى برؤيتها تتعذب كما تعذبت عندما استولت على قلب زوجي وكي لا أثير الشك نحوي

" طبعاً محدش قدك دلوقت اهي شالت الرحم خالص لا هتحمل من عادل ولا من غيره "

كانت هذه سعاد تحدثني على الهاتف لتبارك لي فلقد بلغت نصف مرادي وتبقى أن يطلقها عادل بلا رجعة

_أخيراً ارتحت دلوقتي بس هديت ناري وأنا شايفاها بتتعذب وطبعاً أن قدام عادل الملاك الوديع اللي ما سابتش ضرتها ولا يوم في مرضها وباقي راضي عني كل الرضى

_مبروك يا حبيبتي أي واحدة تخطف راجل من مراته تستاهل أكتر من كدا يلا بقى شوفي هتكافئيني بإيه على أفكاري

_ بس كدا دا أنا عنيا ليكي يا سوسو يطلقها بس وأنا اللي تطلبيه هعملهولك وزيادة

_صحيح هو ما قالكيش ناوي يعمل معاها ايه أنا خايفة تصعب عليه ويفضل مخليها على ذمته

تنهدت بضيق وقلت

_ هي فعلاً صعبانة عليه والحاجة اللي تخليه يطلقها أنه يكرهها ويتقفل منها

_ايه بتفكري تعمليلها عمل تاني ولا ايه؟

_تؤ أنا بفكرلها في فكرة تانية خاااااالص حاجة كدا تخليه يطلقها بفضيحة عشان تبقى طالق بالتلاتة

****

للمرة العاشرة خلال هذا الشهر استيقظ فزعة واصرخ بهيستريا حتى يستيقظ من في البيت جميعاً

عادل وهو يربت على كتفي بحنان

_اهدي اهدي يا ناهد مفيش حاجة أنتي كويسة

قُلت بفزع بالغ

_ لا لا يا عادل أنا مش كويسة دي عاشر مرة اشوف نفس الحلم بنفس التفاصيل أنا مش فاهمة ايه ده

زفر عادل بقلة حيلة وقال

_ طب وبعدين أنا بدأت اقلق عليكي كدا فيه ايه الحلم ده بيخليكي تقومي مفزوعة كدا

ابتلعت ريقي وقولت بخفوت

_أنا مكنتش حابة احكيهولك عشان ما تتفزعش أنت كمان بس أنا مابقتش متحملة الوضع ده ونفسي حد يطمني ويقولي الحلم ده معناه ايه

_قولي أنا سامعك

_عارف الشجرة الكبيرة اللي قدام بيت والدك في الزمالك اللي فيها فروع كتير مايلة للأرض وكنت بتحب تقف عندها أنت وصحابك زمان

_أيوة عارفها مالها بقى

_بشوفك مربوط فيها بحبل كبير أوي وعمال تصرخ وتستنجد بيا حاولت أجري عليك عشان أنقذك وافكك لقيت واقف بيني وبينك حيّة ضخمة وعمال تبصلي بشر وتنطر سمها عشان يجي عليا فخوفت أوي وكل ما احاول ابعد عنها أو الف من ورا الشجرة عشان أوصشلك تتحرك أسرع مني وتمنعني وبعدها ظهر كلب أسود وحش أووووي وقعد يعض فيك وأنت تصرخ وفجأة الحيّة دي بتتحول وتبقى .....

بنفاذ صبر قال

_بتبقى ايه!!!

_بتتحول لصورة زينة وهي بتضحك بطريقة هيستيرية مرعبة وبتعضني في إيدي فبقوم مفزوعة

_لا حول ولا قوة إلا بالله ايه الهلاوس دي كلها، دي أضغاث أحلام

_أنا قولت زيك كدا خصوصا إني بحب زينة واحسبها على خير بس التكرار هيجنني يا عادل التفاصيل المكان كل حاجة بتتكرر لدرجة أني لأول مرة اتوضى واصلي ركعتين قبل ما أنام من كتر ما أنا خايفة أنام واحلم وبرضو الحلم اتكرر

صمت هو فأردفت

_زينة طيبة وكويسة بس أنت عاشرتها أكتر مني تفتكر الحلم دا ممكن يكون زينة مش بتحبني أو ناويالي على شر

نظر لي بغضب ثم هدأت نظرته وقال بهدوء

_زينة طيبة ومحترمة وأخلاقها عالية

بنفس النبرة الهادئة سألته

_أنا عارفة طبعا الكلام ده بس مش خايف موضوع الخلفة والعملية يكون أثر عليها وخلاها تتغير

تنهد بضيق وقال

_هي صحيح بقت عصبية وحساسة بزيادة بس دي مسألة وقت وهتفوق وترجع لطبيعتها

_ان شاء الله بس أنا لو الحلم ده اتكرر معايا هشوف شيخ يفسرهولي

****

منذ تلك الليلة وتغير حاله كثيراً كنت أعرف أن ما رويته له سيكون بذرة شك بداخله ترويها زينة بأفعالها الغريبة التي صارت عليها بعد أن فقدت آخر أمل لها في الإنجاب حتى أني علمت أن صلاتها وعبادتها كلها تأثرت كثيراً ويبدو أن إيمانها المزعوم قد تكّشف وبان،

استمريت أنا في التظاهر كل ليلة حتى أنّه نفذ صبره وقال بغضب

_ارتاح فين أنا مش عارف أنا مابقتش عارف أواسي مين واهون على مين وأنا حتى النوم ما بتهناش فيه

نعم لقد استوى على الجانبين وأتى دور الخطوة الأهم استعنت بصديقة لي ولسعاد لا يعرف عنها عادل شيئاً وطلبت منها أن تقوم بدور مفسرة الأحلام أمام زوجي كي يقتنع أن زوجته الأخرى عملت له عمل بالشقاء لأنها ربما تظن أنه من سبب لها التعاسة في حياتها وسبب حرمانها من الإنجاب

ذهبت مع سعاد وأحلام صديقتي إلى كافية قريب من المدرسة التي نعمل بها وهاتفت عادل وأخبرته أني أريده في أمر هام فـأتى مسرعاً

قلت له بأسف

_حقك عليا يا عادل إني جيبتك على ملى وشك بس الموضوع مهم ولا يحتمل التأخير

كان وجهه مصفراً وقال بقلق

_خير يا ناهد طمنيني طيب

_طبعاً أنت عارف الكابوس اللي ملازمني بقاله شهور أنا قررت إني لازم اشوف حل وافهم أنا ليه بشوفه فكلمت سعاد وهي كلمت الأستاذة أحلام عالمة بتفسير الأحلام ودارسة علم نفس

وهي ممتازة بجد وأكتر من حد شكرلي فيها وفي أمانتها وأخلاقها فحكيتلها الحلم وحبيت إنك تسمع منها التفسير بنفسك

بدا مترقباً ونظر لإحلام التي لم يرف لها جفن وقالت بثبات

_أنت معمولك عمل يا أستاذ عادي

بغضب قام من مكانه وصاح

_أنتي بتقولي ايه يا ست أنت **؟!!!**

أشارت له بهدوء أن يجلس مكانه مره أخرى وقالت

_من فضلك اهدى يا أستاذ عادل كل كتب التفسير وعلماؤه بيأكدوا إن الكلب الأسود في الحلم عمل والحية كمان مكر ومكيدة للشخص الي شافها ولازم يتغلب عليها في الحلم بالقتل حضرتك الكلام ده مصدق تقدر تسأل فيه أي شيخ وتقدر تبحث على النت كمان كتب التفسير في كل مكان

بسخرية قال

_وطبعاً هتقوليلي أن اللي عملي العمل هو زينة مراتي**؟!**

عدّلت أحلام نظارتها الطبية وقالت

_أنا مليش إني اقولك مين عمل فيك كدا بس تكرار ظهورها في صورة الحية أكيد لسبب ما، ولو حضرتك عاوز نصيحتي الموضوع ده ماينفعش تتعامل معاه بلامبالاة عشان السحر والأعمال ممكن تقلب حالك وكيانك رأساً على عقب لو مالحقتش نفسك وحاولت تحل العمل ده في أسرع وقت

قام من مكانه وأشار لي أن اقف لانصرف معه وقال لأحلام ببرود

_شُكراً على النصيحة

****

كنت على يقين أنه لن يسلم بسهولة بل سينكر ويغضب وقد يهجرني ولكني حسبت خطواتي بشكل دقيق وبالفعل قد صنعت له عمل بأن يكره زينة وينفر منها وسحرت لهم بالتفريق على يد الشيخة وهيبة وهي التي دفنته في المكان الذي طلبته منها والذي أراه في حلمي المزعوم

وما أن دلفنا الشقة قام برزع بابها بعنف وزفر بغضب فتصنعت الحزن وقلت له

_أنا أسفة يا عادل أنا كان لازم أخد الخطوة دي اللي بشوفه كل ليلة دمر أعصابي

ثم رفعت الجزء السفلي من ردائي وأشرت له على بقعة زرقاء أسفل ساقي وقلت بضعف

_كل يوم بصحى بألم شديد في رجلي مكان ما الحيّة بتدلغني الأول كان وجع بس من يومين بقيت الاحظ أنها بتزرق زي ما أنت شايف

رأيت التأثر في عينيه ولكنه قال

_بس أنا مستحيل اصدق إن زينة عملت لنا عمل

هادنته وقلت

_ولا أنا مصدق بس حط نفسك مكاني وحس باللي بحس بيه أنت عارف أنا فكرت في ايه

نظر لي منتظراً أن أكمل فقلت

_فكرت اروح عند الشجةر اللي بشوفها في الحلم واحفر جنبها واشوف في عمل ولا لا ولو لقيته هدور على شيخ كويس يفكه ولو مالقتش يبقى أضغاث أحلام زي ما أنت قولت

ظل على صمته ولكني أجزم من أن شيطانه يعبث بعقله الآن وأنه لن يتركه إلا إذا حفر عند الشجرة

****

نحن بنو آدم نفعل الأفاعيل كلها وننسبها للشيطان في حين أن شيطان الجن قد يقف مبهوتاً من دهائنا وشرنا ويُقسم أنه بجانبنا حمل وديع

يومان بالتمام والكمال وقد فعلها جلس بجانبي مصدوما ويحمل بين يديه صورة لزفافنا مكتوب عليها الكثير من الطلاسم برقت عيناي وقلت له بصدمة

_لقيتها فين؟؟؟؟

تنهد بتعب وقال

_لقيتها جنب الشجرة اللي قولتي عليها في الأول ملقتش حاجه لكن لما تعمقت في الحفر لقيتها في كيس أسود

تصنعت البكاء وقلت له

_ليه تعمل فينا كدا شافت ايه مننا وحش عشان تأذينا كدا أنا مابقاش عندي شك إن هي اللي عملته الحلم كله اتحقق ماطلعتش أوهام اهي مطلعتش ظلماها حسبي الله ونعم الوكيل فيها،

أنت لازم تطلقها يا عادل الست دي يتخاف منها دخلت علينا بدور المشيخة والتقوى ولما لقت إنها مش هتخلف منك وإنك ممكن تسيبها أو تزهق منها فأي وقت فكرت تأذيك بالسحر عشان تكون تحت طوعها وتخلص مني بالسحر

لم أجد منه رد فقط منكس رأسه وجهه مليء بالحسرة مما أثار غيظي فقلت له بحزم

_يا أنا يا هي يا عادل يا تبعد الحيّه دي عننا يا إما تنساني أنا وولادي وتتلفح بيها

_أنا ما اقدرش اسيبك يا ناهد أنتي عشرة عمري

امسك بهاتفه الموضوع بجانبه وقلت

_يبقى تنهي الموضوع ده قدامي وحالاً

نظر لي بقلة حيلة ثم أخذ الهاتف ببطء لم أخبركم أن في العمل أيضاً طلبت أن يطيعني في كل شيء

وقفت أمامه بجمود وهو يهاتف أخو زينة وقال

" أختك طالق وكل حقوقها هتوصلها عاوز ارجع بيتي بليل ما اشوفهاش "

أخذت نفس عميق كمن طال غيابه أسفل الماء وأخيراً خرج ليعرف الهواء طريق رئتيه

واسيته وأخذت منه الصورة كي اذهب بها لوهيبة لتفك العمل واقفل هذه الصفحة من حياتي بلا رجعة

****

مضى عام على هذا الفصل من حياتي ونسيت أو تناسيت أن الله لا يُفلح الظالمين أو أخبركم سراً علاقتي بربي لم تكن يوماً مثالية فحياتي ميسور منذ نعومة أظافري لم اكن ادعو الله كما هو المفترض أن افعل ولما قد افعل وكل شيء أردته حصلت عليه بلا أي مجهود يُذكر حتى عندما دخلت حياتي ضرة أرّقت نومي وسلبت راحتي لما اتوجه إليه بالدعاء ليخفف عني فأنا

لم اعتد ذلك ولكن اتخذت أسوء طريق قد يتخذه إنسان الأستعانة بالجان والمشعوذين ليحلّوا لي مشكلتي أما بابه فلم يخطر بذهني حتى أن اطرقه

حتى أتى اليوم الذي لم أحسب له حساب اليوم الذي بدء ينفد رصيدي فيه عند الله وتسربت النعم من بين يدي وكأنها سراب

كنت جالسة أمام التلفاز افكر في عادل الذي زهدني مجدداً صحيح هو ليس على علاقة بأخرى فبعد ما مر به قد يزهد في صنف النساء جميعا لا أعتب عليه، أتت ابنتي وعيناها منتفختان من البكاء فقلت لها في فزع

_مالك يا هايدي في ايه يا حبيبتي ؟!!!!

جلست بوهن والقت ما بيدها من أوراق على الطاولة أمامها ثم قالت

_أنا عمري ما هبقى أم

شهقت بصدمة وقلت

_ أنتي بتقولي ايه بعيد الشر عنك لا هتخلفي وهتفرحي بأحسن ذرية كمان يابت أنتي لسه صغيرة واللي قدك لسه ما اتجوزوش اصلاً

نظرت لي بحزن مزق نياط قلبي وقالت

_أنا عندي سرطان على المبايض دمّر البويضات ونسبة الشفاء منه معدومة والحل الوحيد ليه هو إني اشيل الرحم

نزل الخبر على قلبي كالصاعقة ولم استطع الحديث وكأني لا استوعب ما قالته وبعد صمت قلت لها

_ مفيش حاجة مستحيلة أنا اعرف دكاترة كويسين جدا ولو منفعوش هخلي أبوكي يسفرك برة وتتعالجي هناك الطب هناك أحسن

نظرت لي نظرة غريبة لم افهمها وقالت

_كان سفر زينة تتعالج أولى

نظرت لها بغضب بالغ فلما تذكر تلك الحيّة الآن ثم قلت بغيظ

_زينة دي حيّاله مراته يعني تغور ويجي غيرها لكن انتي بنته ونور عينه ماسمعكيش بتجيبي سيرتها بعد كدا

قامت من مقعدها وأخذت أوراقها وقالت

_وفري مجهودك مش محتاجة اخلف أحمد خلاص طلقني أول ما عرف، خسرت كل حاجة بيتي وصحتي وجوزي والله اعلم هخسر ايه تاني

تركتني ودخلت غرفتها واغلقت على نفسها بالمفتاح

كدت أُجن كيف يطلقها بهذه السهولة هل أتى بها من الشارع كي يرميها هكذا دون أي اعتبار للحب الذي كان بينهم أو لمكانة أبيها غلى الدم في عروقي فهاتفت سعاد كي تنجدني في مصيبتي ولكن هاتفها مغلق حتى هاتف المنزل لا أحد يُجيب عليه، جربت أن أهاتف عادل حتى يأتي وندبر أمر ابنتنا التي ذبلت زهرتها وهي في مقتبل العمر ولكنه أيضاً لا يرد

****

وأخيراً سعاد تهاتفني أجبتها مسرعة

_ألو، أنتي فين يا سعاد؟!!

أجابتني أخرى وقالت برسمية

_أستاذة ناهد معايا؟

بقلق أجبتها

_أيوة أنا ناهد أنتي مين؟!

_مع حضرتك ليلى من مستشفى السلام الدولي، أستاذة سعاد هنا من امبارح ابنها جالنا في حادثة عربية وللأسف بعد ساعة من دخوله المستشفى اتوفى ومن وقتها أستاذة سعاد تعبانة جداً ومش قادرة تستوعب اللي حصل ففتحنا موبايلها وكلمنا أخر رقم كانت مكلماه

دارت بي الدنيا ولم استوعب ما حدث سعاد في المستشفى وابنها الوحيد توفي في حادث يا ربي المصائب لا تأتي فرادى

_أستاذة ناهد حضرتك معايا؟!!

جاوبتها وأنا شاردة

_أيوة

_ياريت حضرتك أو أي حد من قرايب المريضة يتواجد هنا في المستشفى عشان يخلص الإجراءات ويتسلم الجثة ويقوم باللازم

_أنا جاية حالاً

أغلقت الهاتف وأنا مصدومة من اللي حصل وتايهة لازم اكلم عادل

هاتفته مرة أخرى وأخيراً رد شرحت له الأمر في عجالة وطلبت منه أن يسبقني إلى المستشفى

****

رأيتها وبالكاد عرفتها أهذه سعاد؟!! الهذه الدرجة يغير الحزن ملامحنا؟!

وأي مُصاب هذا فلقد فقدت ابنها الوحيد وكل ما لها في الدنيا، سعاد أرملة في الخمسين من عمرها تزوجت في وقت متأخر في الثلاثين ربما وأنجبت "وائل" ولم ترزق بغيره وبعدها بخمسة أعوام توفى زوجها فعكفت على تربية صغيرها وتدليله وها هو يرحل عنها في بداية شبابه

بخفوت ناديتها وهي جالسة على السرير في غرفة بالمستشفى

"سعاد"

هي أيضاً لم تعرفني ليس لتغير ملامحي ولكنها نظرت لي وكأنها تراني لأول مرة وقالت بتوجس

_أنتي مين؟

بشفقة أجبتها

_أنا ناهد..ناهد جبر صاحبتك أنتي مش فكراني؟

نظرت لي بشك ثم قالت

_لا مش فكراكي بس لو زي ما بتقولي صاحبتي خليهم يخرجوني من هنا أنا لازم اروح عشان اعمل الغداء لوائل قبل ما يرجع من الجامعة

فزعت لما قالته وابتلعت ريقي بصعوبة فماذا اقول لها ؟!! أن وائل لن يعود من الجامعة ولا من أي مكان آخر وأنه بالفعل هنا معها ولكن في ثلاجة الموتى

ربتت على كتفها فانتفضت وقلت لها

_أنا هروح اكلم الدكتور واقوله يخرجك وهوصلك بنفسي للبيت

ابتسمت لي وقالت

"شكراً"

تركتها بالغرفة وخرجت وأنا لا اعرف ماذا عليّ أن افعل في هذا الموقف

وجدت زوجي يقف مع أحد الأطباء فهرعت إليه ووجدته يقول

_الخبر كان صعب جداً عليها احنا ادياناها مهدئات عشان كانت في حالة انهيار شديد

قاطعته وقلت

_يا دكتور دي مش فكراني وكمان عاوزهتروح عشان تعمل أكل لابنها اللي جاي من الجامعة

_دا طبيعي جداً في الحالات دي المريض بيفضل في حالة نكران للمصيبة عشان يقلل من حدتها على أعصابه دا لوقت مؤقت ومع الوقت الحالة دي بتقل وبيبدء في تقبل الأمر وده طبعا بالمتابعة مع طبيب نفسي وبدعم الأهل لازم يكون حد معاها الفترة دي يراعيها

_بس دا مفيش حد من أهلها هنا يا دكتور أهلها وأهل جوزها من الصعيد وما افتكرش أن حد منهم هنا خالص

عدّل الطبيب منظاره الطبي وقال برسمية

_في الحالة دي يُفضّل تفضل في المستشفى لأن الرعاية هنا هتكون أفضل وعشان تكون تحت الملاحظة لو حصل أي مضاعفات

تركنا الطبيب وظللت أنا وعادل في حالة حزن كبير لما حدث لسعاد ولابنها الذي مات في ريعان شبابه، قطع عادل صمتنا وقال

_أنا دفعت حساب المستشفى بس لازم حد من قرايب المتوفي يمضي على تصريح الدفن ويشوف عاوزين يدفنوه فين، ما تعرفيش أي حد من قرايبهم أو رقم تليفون حتى؟

أخذت هاتفها عندما وصلت للمستشفى وفتحته الآن ثم بحثت في الأرقام المسجلة حتى وجدت نجدتي في رقم مسجل بإسم "عبد القادر هواري"

أتذكر هذا الأسم جيداً فهو عم وائل الذي كان يريد أن يتزوج من سعاد بعد وفاة أخيه ولكنها رفضت لأنه كان طامعاً في ورثها وورث ابنها، هاتفته على الفور وبعدما شرحت له ما حدث لم يتأخر في الحضور وبعد عدة ساعات كان معنا وأتم الإجراءات وسعاد في عالم آخر منفصلة تماماً عن واقعها

تحدث نفسها وأوقات تحدث ابنها وكأنها تراه

"مش قولتلك مفيش أكل في الشارع تاني!!!"

"أنا عملتلك المحشي اللي بتحبه"

تارة تبكي وتارة تضحك بشدة

"أنت واخد كل حاجة من أبوك حتى خفّة دمه"

ترحمت على عقل صديقتي الذي كان زينة العقول وعلى صغيرها زينة الشباب ثم وضعت امبلغ من المال في حساب المستشفى وتعهدت بتكفل كل مصاريف علاجها وزيارتها دائماً

هممت بالإنصراف مع عادل ولكن وقبل أن أصل لسيارته دارت بي الدنيا واظلمت وسقطت مغشياً عليّ

****

إن كان من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله فكذلك من دلّ على شر فله مثل إثم فاعله

و أنتم رأيتم ما حدث لابنتي وصديقتي اللاتي ساعدنني فما ظنكم بي وأنا التي فعلت وفعلت ما يعجز عنه رهط من الأشرار

اللآن وبعد طلاق ابنتي وفلذة كبدتي وذبول زهرتها بسبب مرضها وحزنها وبعد ما حدث لصديقتي من فاجعة فقدان ابنها وفقدان عقلها في أثره أتى دوري وظهرت نتيجة تحاليلي وكانت " سرطان في العمود الفقري واصل للنخاع " والحالة متأخرة جداً لم اصدق في البداية

فأنا لا اشتكي من أي شيء ولا حتى الصداع فكيف ومتى حدث هذا؟!! أعدت التحاليل في أكثر من مكان والنتيجة واحدة، وكأن الأوجاع انتظرت معرفتي بمرضي وانهالت عليّ كسيلٍ عرِم لا تؤثر فيه أعتى المسكنات حتى إني قد أصاب بالشلل لبعض الوقت واعجز عن تحريك أياً من أطرافي، هذا كان ألم جسدي أمّا عن ألم قلبي فحدث ولا حرج عانيت الوحدة بعد سعاد التي كانت كظلّي وابنتي زهدت فيّ وصارت تعاملني بجفاء وكأني السبب في طلاقها ومرضها حتى زوجي لم يعد يهتم بآهاتي وآلامي وصار يغيب عن لبيت بالأيام ولا اعرف له طريق، حتى صغيري لم الحظ عليه علامات الإدمان إلا الآن حمرة عينيه التي كنت اعللها بالمزاكرة هالات عينيه قاتمة السواد التي عللتها بكثرة السهر كيف لم التفت له أو اهتم به في خضم اهتمامي بكل تفاهاتي تلك وجدتني وقد ضعفت قوتي وقلّت حيلتي وهُنت على الناس فلم أجد سوى بابه أطرقه

"انجدني يا الله"

وكأني قد احتجت له الآن فقط لينظم فوضى عالمي الذي زعمت أني لا احتاج له فيه وأن حياتي يسيرة بفضل عقلي وتدبيري وأني في غنى عن دعائه أما الآن فبعد انصراف الحبيب وخسران الأبناء وضياع الصديث وبعد أن أضحت كنوز الدنيا كلها لا تساوي ليلة اغفو فيها بلا أوجاع وأدوية وضحت الرؤية ورُفع عني غشاوتي وبصُرت بالدنيا على حقيقتها ورُخصها

فهل لي من توبة ؟!!!!!

****

مر أكثر من شهر وأنا حالتي في تدهور مستمر وشعرت بالموت قاب قوسين أو أدنى، أردت أن اكفر عن 1نوبي قبل أن القاه لقد خسرت دنياي وحقاً لا أريد أن أخسر أخرتي، صرت أصلي كل فرض في وقته ولو على سريري راقدة وأعطيت ابنتي كل مجوهراتي ونصحتها أن تبدء في رحلة العلاج سريعاً فهي في ريعان شبابها ولا يجب أن تيأس من روح الله، وطلبت من عادل أن يهتم بمحمد صغيرنا و أن يُلحقه بمصحة لمعالجة الإدمان وألا يتخلى عنه كما تخلى عنّي.

"زينة"

ذنبي الذي لا يُغتفر، زينة التي سحرته وحرمتها الذرية طوال عمرها وجعلت زوجي يطلقها بلا جريرة اقترفتها بل وفضحتها بين الناس أنها ساحرة مشعوذة أذتني وأذت زوجي، يجب أن

ابحث عنها واطلب منها أن تسامحني مهما كلفني الأمر حتى ولو طلبت منّي أن أُقبّل قدميها سأفعل فأنا لا أقوى أن اقابل ربي بذنب كهذا

****

بحثت عنها كثيراً حتى يئست أن أجدها فلقد غادرت هي وأهلها بيتهم هرباً مما تسببته لهم من فضائح، دعوت الله ليلاً ونهاراً أن أجدها قبل أن ينقضي أجلي فأطلب عفوها علّها تجود لي به وبعد أن ترددت على منطقتها أكثر من مرة اسأل عنها القاصي والداني استوقفتني امرأة في مثل عمري وقالت بجفاء

_بتدوري عليها ليه؟! مش كفاية اللي عملتيه فيها؟!

يبدو أنها عرفتني فقلت لها

_أرجوكي لو تعرفي عنها أي حاجة طمنيني عليها ووصليني ليها أنا لازم اتكلم معاها ضروري

نظرت لي من رأسي لقدمي وقالت ببرود

_بس دا مش إجابة سؤالي عاوزاها ليه!!

نكّست رأسي بخزي وقلت

_عاوزه اطلب منها تسامحني على كل حاجة وحشة عملتها فيها عاوزه اعوضها عن كل ظلم اتعرضتله بسببي بس تسامحني

نظرت لي المرأة باشمئزاز وقالت

_وماله هقولها واشوف هتوافق تقابلك ولا هترفض هاتي رقمك عشان ابلغك ردها بس لو كان ردّها إنها مش طايقة تشوفك يبقى ماتجيش هنا تاني ولا تحاولي تدوري عليها تاني ..احسنلك

شكرتها كثيراً رغم أني لو في موقف آخر ما صبرت على أسلوبها المُنفر وأعطيتها رقمي وانتظرت كثيراً خمسة أيام حتى أتاني الرد

****

ها أنا اجلس أمامها اذوب في جلدي خجلاً فلقد اصطحبتني المرأة التي كانت حلقة الوصل بيننا إلى منزلها وقالت أن زينة وافقت على رؤيتي ولكن ليس في بيتها الجديد فهي لا تريده أن يتلوث بدخولي إليهـ تركتنا السيدة وحدنا كي نحظى ببعض الخصوصية

تجلس أمامي بثقة وكبرياء رغم لمحة الحزن بعينيها لا تنظر تجاهي ولكنها مثبتة نظرها في الفراغ ومنتظرة أن ابدء أنا الحديث

ابتلعت ريقي بصعوبة فحلقي جاف كأني لم أذق الماء منذ أيام وهربت من حروفي فتلعثمت في بداية الكلام ولكني أخذت نفساً عميقا ونظرت للأرض أمامي وقلت

_زينة أنا طلبت أقابلك عشان اقولك أذيتك ووجعتك عارفة إني اللي عملته في حقك كبيرة من الكبائر أنا كنت معمية بالحقد والكراهية وشيطاني كان سايقني وفوقت متأخر للأسف بس صدقيني ربنا رجعلك حقك وزيادة أنا عندي سرطان في العمود الفقري وحالتي متأخرة جداً وأيامي معدودة وكل اللي ساعدني في أذيتك ربنا انتقملك منه أنا جاية طمعانة في كرم أخلاقك واصلك الطيب إنك تسامحيني أنا مستعدة انفذلك أي شيء نفسك فيه عشان تسامحيني

رفعت نظري من الأرض لأنظر إليها وجدتها تبتسم بهدوء وقالت

_نفسي في عيل

لم ارد ولم افهم فأردفت هي

_ايه تعرفي تعمليلي عمل يخليني اخلف تعرفي تخليني احمل ويبقى عندي اطفال من دمي

انفرجت شفتاي كنت سأقول شيئاً ولكن ماذا اقول لها فسكت فأكملت هي

_يعني أنتي حرمتيني من الخلفة وسحرتيلي وفضحتيني في وسط أهلي وجيراني وطلقتيني بفضيحة والجبان اللي اتجوزته مافكرش حتى يسألني اذا كان دا حصل ولا ما حصلش صدقك وما اهتمش حتى يسيبني ادافع عن نفسي خسرت صحتي وبيتي وشغلي وسمعتي وأنتي كسبتي كل حاجة ولما حسيتي إن نهايتك قربت قولتي اكسب مسامحتها كمان وتبقي حوزتي الدنيا والأخرة بالبساطة دي؟!!!

قامت من مكانها وقالت بجمود

_لا والله ما اسامحك أبداً ربنا يحرمك من كل لذة حرمتيني منها ويحرّم عليكي رحمته

تركتني وأنا ابكي في صمت من قسوة كلامها ولكن هل قسوة كلامها جنب قسوة فعلي شيء!!

****

سأخبركم شيئاً أخير

أنا حقاً محظوظة لا تتعجبوا بالفعل محظوظة فمرضي الذي ينخر في جسدي وكل ما خسرته سيخفف من عذابي في الأخرة ولو شيئاً يسير واعلم أيضاً أن جُرمي لا يغتفر ولكن سأظل ادعو لزينة ما تبقى لي من عمر سأظل أدعوه أن يعوضها الله عما فعلته بها في الدنيا والأخرة وأن يسعدها ويغفر لي ما قد سلف، كرهتموني اعلم وأنا أيضاً أكره نفسي أكثر ولكني أخبرتكم بقصتي لا لتُحبونني ولكن لتتعظوا وتخشوا أن يُمهل لكم الله فتأمنوا مكره أو أن يؤخركم ليوم تُبعثون وهذا أعظم فالكثير من العصاة منّا يرتكبون الكبائر جهراً وهم في عيش رغيد وعمر مديد ويظنون أن ربهم غير غضبان وأن ما فعلوه بغيرهم كانوا يستحقونه وأنهم أخيار وإلا ما أفاض الله عليهم من عطائه لا والله أليس هو القائل

"وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ"

تمت بحمد الله